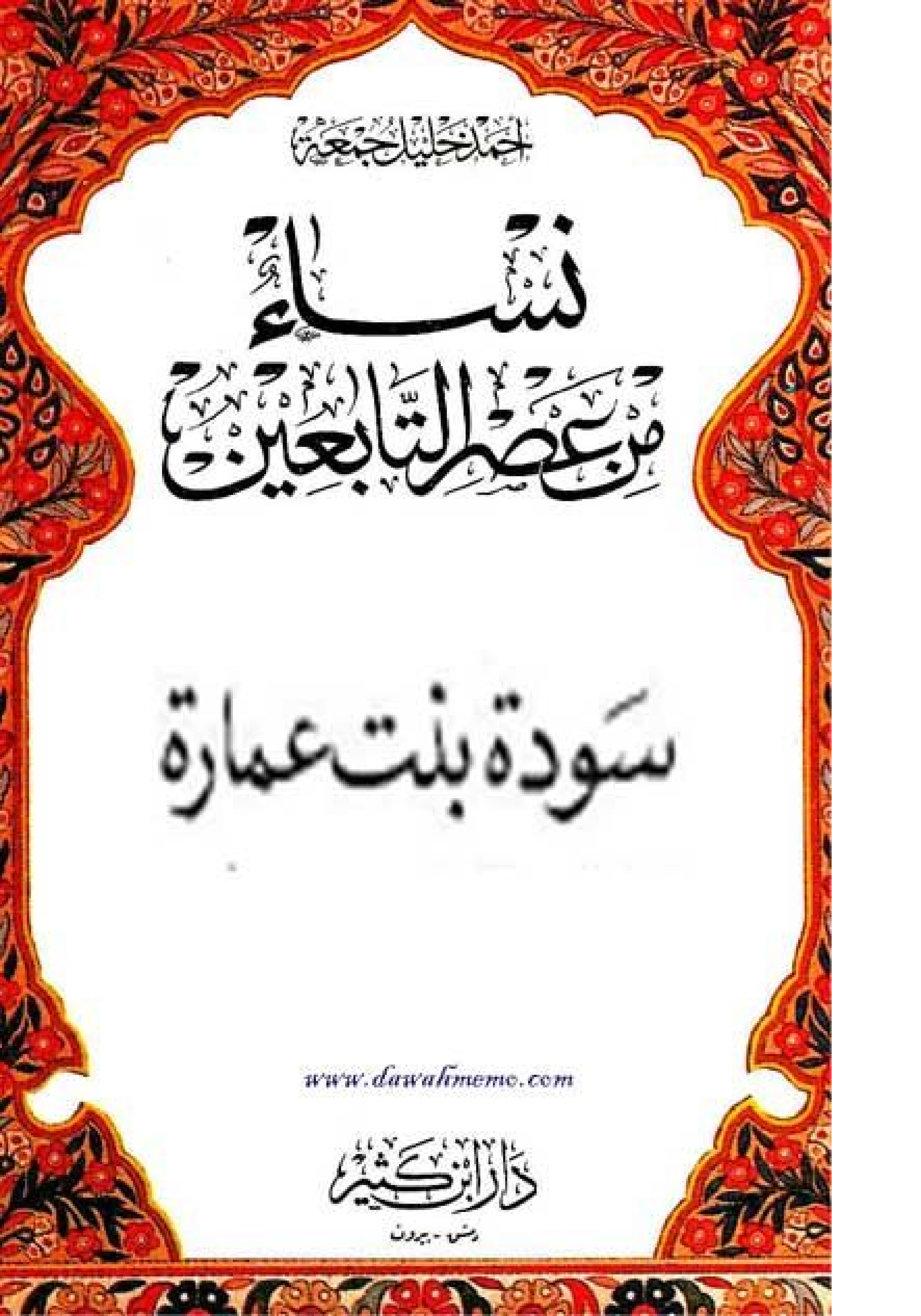

أحمد خليل جمعة
نساء من عصر التابعين
سودة بنت عمارة
www.dawahmemo.com
دار ابن كثير
دمشق - بيروت

(١٢)

سَودة بنت عمارة

• تابعية ، فصيحة ، شاعرة ، من أنصار علي بن أبي طالب ، وفدت على معاوية في شكوى لها ولقومها فأنصفها .

سَودَةُ بنْتُ عمارَةَ

الخَطيْبَةُ الشَّاعِرَةُ :

* جمعت سودة بنت عمارة بن الأسك الهمدانية[1] جمال الشّعر وبيانه ، إلى جانبِ الفصاحة والخطابة والبلاغة ، واشتهرتْ ـ في عصر التّابعين ـ بثبات الجنانِ ، والشّجاعة في ميدان القتال ، ومنازلة الفرسان .

* وكانت في خطابتها تنبئُ عن حضور البديهة ، وقوة العارضة ؛ أمّا شِعْرُها فكان يفور فوران المِرجل ، ويحفل بكلّ عاطفة وقّادةٍ تحمل كلّ الحبّ لبني هاشم ؛ أولئك الذين هم مهبط الوحي ، وشعبة الهدى ، وأئمة البيان ، وهم الذين وصفهم مسلم بن بلال العبديّ بقوله : أولئك قومٌ بنورِ الخلافةِ يشرقون ، وبلسانِ النّبوّةِ ينطقون[2] .

* وكانت سودةُ بنتُ عمارة من نساء عصر التّابعين ، ممن كن ينظرن إلى سيّدنا عليٍّ ـ رضي الله عنه ـ نظرة إكبار وإجلال ، فقد كانت من أنصارهِ قولاً وعَمَلاً ، ومن جنوده البواسل في « صفين » مع أخيها الذي كان من الأبطال الأشدّاء في ذلك اليوم ، وكان لأخيها مقامٌ

---

(١) أعلام النساء (٢/٢٧٠) ، وشاعرات العرب (ص ١٧٣) وفيهما ابنة الأشتر بدلاً من الأسك .

(٢) زهر الآداب للحصري القيرواني (١/٦٣) .

لا ينسى إذ عُرف بالشّجاعة والإقدام ، كما عُرف بالفصاحة والبيان أيضاً .

* ولعلّ سودة بنتَ عمارة ـ رحمها الله ـ قد أخذت عن بني هاشم نصاعة بيانهم ، ومضاء حجتهم ، وسمو أدبهم ، فقد جمعوا مع كرم الأرومة والأصل إمْرة البيان ، وزمام العلم ، وقد ورثه الأبناء عن الآباء .

شَــرفٌ تنــقَّــلَ كابراً عن كابرٍ
كالرُّمح أنبــوبــاً عــلى أنبــوب

* * *

بيْنَ يَدَي مُعَاوِيَةَ :

* ترسمُ أخبار هذه التّابعية صورةً صادقةً عن دور المرأةِ في عصر التّابعين ، كما تعطي ملامحَ واضحةً للحياة الاجتماعيةِ والسّياسة عصر ذاك .

* وفي أخبار سودة نجدُ جرأتها في الدّفاع عن حقّها ، ومشاركتها في التّعبير عن رأيها وتصريف شؤونها ، كما نجد علو همّتها ومضاء عزيمتها ، إذ أنّها تجشمت عناء السّفر ، وأتتْ من بلادها البعيدة ـ اليمن ـ إلى مقرّ الخلافة ، فقدمت على معاوية ودخلت عليه بدمشق في شأنٍ من شؤونها الخاصة وشؤون قومها جميعهم ؛ فقد قابلت معاوية ـ رضي الله عنه ـ متظلمةً من واليه على اليمن ، وأسمعته من بليغ قولها ونصاعة الشّعر ما جعله يرفع عنها الجور الذي لحقها ، ولما ذكّرها سيّدنا عليّ بن أبي طالب ـ رضوان الله عليه ـ لم نجدْها مضطرةً إلى كلمةِ نفاقٍ واحدة ، أو

تلجلج لسانها ، بل أظهرت رأيها ومكنون نفسها بكلِّ جرأة وصراحة تدلان على نظرتها السّليمة لما تقول ، وبعد هذا أكْرمَها وأعادها بكتابٍ عزل فيه واليه عن اليمن .

* ولنبدأ القصة من أوّلها ، فقد حدَّثَ الإمام الشّعبيُّ ـ رحمه الله ـ فقال :

استأذنتْ سودةُ بنت عمارة بن الأسك الهمدانية على معاوية بن أبي سفيان ـ رضي الله عنهما ـ ، فأذن لها ، فسلَّمتْ فردَّ عليها السّلام ، ثم قال لها : هيه ، يابنت الأسك ، كيف أنتِ ؟

قالت : بخير ـ والحمد لله ـ يا أمير المؤمنين .

فقال لها : ألستِ القائلة لأخيك يوم صِفّين[2] :

شمِّر كفعلِ أبيك يا بن عمارة
يوم الطّعان وملتقى الأقرانِ
وانصُر عليّاً والحسين ورهطه
واقصد لهندٍ وابنها بهوانِ

(١) الشّعبيُّ : عامرُ بن شراحيل بن عبد ذي كبار الشّعبيّ الحميريّ ، أبو عمرو ، راوية من التّابعين ، يُضربُ المثل بحفظه ، ولد بالكوفة سنة (١٩ هـ) وكان نديماً لعبد الملك بن مروان ، وهو من رجال الحديث الثّقات ، استقضاه عمر بن عبد العزيز رحمه الله وكان فقيهاً شاعراً ، وأخباره كثيرة جداً ، توفي بالكوفة سنة (١٠٣) وله (٨٣) سنة رحمه الله تعالى (الأعلام : ٣/٢٥١) .

(٢) « صِفّين » : بكسر الصاد والفاء المشدّدة . موضع معروف بقرب الفرات بين الرقة وبالس . (تهذيب الأسماء واللغات : ٣/١٨١) .

إنَّ الإمـــامَ أخـــو النَّبـــيِّ محمّـــد
علَـــمُ الهـــدى ، ومنـــارةُ الإيمـــانِ
فَقُـــدِ الجيـــوشَ ، وسِـــرْ أمامَ لوائه
قُدُمـــاً بـــأبيضَ صـــارمٍ وســـنـــانِ

فأجابت دون ترددٍ أو وَجَل : أنا القائلة هذا يا أمير المؤمنين ، وما مثلي مَنْ رغب عن الحقِّ ، ولا أعتذر إليك بالكذب .

قال : فما حملكِ على ذلك ؟

قالت : حبُّ عليٍّ _ رضي الله عنه _ ، واتباع الحقِّ .

قال : واللهِ _ يا ابنة الأسك _ ما أرى عليك من أثر عليٍّ شيئاً .

فقالت سودة : أنشدك الله يا أمير المؤمنين وإعادة ما مضى ، وتذكار ما قد نُسي .

فقال معاويةُ _ رضي الله عنه _ : هيهات هيهات ! ما مثل مقام أخيك يُنسى ، ولا لقيتُ من أحدٍ ما لقيتُ من قومكِ وقوم أخيك .

قالت : صدق فوك يا أمير المؤمنين ، والله لم يكن أخي ذميمَ المقام ، ولا خفي المكان ، كان واللهِ كقولِ الخنساء :

وإنَّ صخـــراً لتـــأتمُّ الهـــداةُ بـــه
كأنَّـــه عـــلَمٌ في رأســـهِ نـــارُ

ثم قالت : بالله أسأل أمير المؤمنين إعفائي مما استعفيت منه .

قال : قد فعلت ، وحبّاً وكرامة .

شَكْوَى وتَوَجُّع :

* بعد أنْ توقفتِ المحاورةُ بين معاوية ــ رضي الله عنه ــ ، وسودة ــ رحمها الله ــ ، ــ وكان قد أُعجب ببلاغتها وشجاعتها ــ توجَّه إليها وسألها فقال : ما حاجتُك يا ابنة الأسك ؟ قولي ما تريدين .

عندئذ بدأت سودة تشكو عامله والحزنُ بادٍ على وجهها ، فقالت : يا أمير المؤمنين ، إنَّك أصبحتَ للنَّاس سيِّداً ، ولأمورهم متقلِّداً ، والله عزَّ وجلَّ سائِلُكَ عن أمرنا ، وعمَّا افترض عليك من حقِّنا ، ولا يزال يقدم علينا من ينهضُ بعزِّك ، ويبطشُ بسلطانك ، فيحصدنا حصاد السُّنْبل ، ويدوسنا دِيَاسَ البقر ، ويسومنا الخسيسة ، ويسألنا الجليلة ، هذا بُسْر بن أرطأة ، قدم بلادي فقتل رجالي ، وأخذ مالي ، ولولا الطاعةُ لكان فينا عزٌّ ومنعة ، فإمّا عزلته عنّا فشكرناك وإمّا لا فعرفناك .

فقال معاوية : يا هذه ، أتهدِّديني بقومك ؟! والله لقد هممتُ أنْ أردَّك إلى بُسْر على قَتَبٍ أشرس[1] ، وأحملك إليه فينفِّذ فيكِ حُكْمه .

عندئذٍ أطرقت سودة ، وهجمت الدُّموع من عينيها ، وتدحرجت على وجهها ، ثم رفعت رأسها ، وأنشأت تقول :

صلَّى الإلهُ على روحٍ تضمَّنَها
قَبْرٌ فأصبح فيه العدلُ مدفونا
قد حالفَ الحقَّ لا يبغي به بدلاً
فصار بالحقِّ والإيمان مقرونا

(١) « القتب » : إكاف البعير ؛ و « الأشرس » : الخشن الغليظ ــ يعني تحملها على بعير هذه صفته ــ .

فقال لها معاوية : ومَنْ ذلك ؟

قالت : عليُّ بن أبي طالب ـ رحمه الله ورضي عنه ـ .

قال : ما أرى عليك منه أثراً ، فما صنع بك حتى صار عندك كذلك ؟

قالت : أتيتُه يوماً في رجل قد ولّاهُ على صدقاتنا ، لم يكن بيننا وبينه إلا كما بين الغثِّ والسَّمين ، فوجدته قائماً يصلي ، فلما نظر إليَّ انفتل من مصلاه ، ثم قال لي برأفةٍ وتعطف : ألكِ حاجة ؟

فأخبرته خبر الرَّجل ؛ فبكى ـ رضي الله عنه ـ ثم رفع يديه إلى السَّماء فقال :

اللهم أنت الشَّاهد عليَّ وعليهم ، إنّي لم آمرهم بظلم خلقك ، ولا بترْكِ حقّك .

ثم أخرج من جيبه قطعة من جراب فكتب فيها :

بسم الله الرحمن الرحيم

قد جاءتكم بيّنة من ربكم ﴿ فأوفوا الكيل والميزان بالقسط ولا تبخسوا النّاس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين * بقيّةُ الله خير لكم إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ ﴾ [هود : ٨٤ و ٨٥] إذا قرأت كتابي هذا فاحتفظْ بما في يديك من عملنا حتى يأتي مَنْ يقبضه منك والسَّلام .

فأخذته منه ، والله ما ختمه بطين ، ولا خزمه بخزام ، فعزلتُه به .

* * *

مُعاويَةُ يُنصِفُ سَوْدَةَ :

* بعد أنْ سمِعَ معاويةُ ـ رضي الله عنه ـ ، التفت إلى كتّابه وقال لهم : اكتبوا لها بإنصافها ، وردّ ما لها ، والعدل عليها .

فقالت سودة : يا أمير المؤمنين ، ألي هذا خاصة ، أم لقومي عامة ؟

قال : ما أنتِ وغيرُكِ ؟

قالت : هي والله إذاً الفحشاء واللؤم ، إن لم يكن عدلاً شاملاً ، وإلا فأنا والله كسائرِ قومي يسعني ما يسعُهم !

فقال معاوية متعجباً : هيهات هيهات ! لقد لَمَظكم ـ ذوّقكم وعوّدكم ـ ابن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ الجرأة على السُّلطان ، فبطيئاً ما تفطمون بغيره ، وغرّكم قوله :

فلو كنتُ بوّاباً على باب جنّةٍ
لقلتُ لِهَمْدان ادخلوا بسلام

اكتبوا لها بحاجتها وحاجات قومها .

ثم ردَّها إلى اليمن معززةً مكرمة تلهج بالثناء عليه .

* وبعد ، فهذه سودة بنت عمارة الهمدانية ، إحدى النّساء التّابعيات اللاتي وَعاهُنّ التّاريخ ، وتركن أثراً خالداً في صفحات النّساء الخالدات .

* رحم الله سـودة ، وجعل وجهها أبيضَ يوم تبيضُ وجوه وتسود وجوه ، إنّه كريم رحيم .

* * *